

ثقافة العائلة وقيمها في رواية الأديبة الجزائرية المسنة.

عزيز نعمان*

جامعة مولود معمري ، تيزي وزو ، aziz.namane@ummtto.dz

الإرسال: 2024/08/15

القبول: 2024/10/14

النشر: 2024/10/25

الملخص:

يبحث هذا المقال في القيم العائلية التي تثيرها روايتنا "وراء دموع جدتي" (Derrière les larmes de ma grand-mère) و "يوما ما ستعود أُمي" (Un jour ma mère reviendra) للروائيتين الجزائريتين فروجة أوسمير وربيعة هاشمي اللتين شرعتا في الكتابة في سن متقدمة. فينصب الاهتمام حول تجليات تلك القيم ، والقضايا التي تطرحها العائلة بوصفها ثقافة ، ومتطلباتها وعوائقها ، ورهاناتها. وسيتم اعتماد بعض المفاهيم الثقافية التي من شأنها إظهار دور تجربة المرأة المبدعة وآليات التزامها وعلامات عمقها ونضجها لدى تمثيل العائلة باعتبارها أكثر قضايا الإنسان تحديدا لمصير الإنسان.

الكلمات المفتاحية: قيم ؛ عائلة ؛ ثقافة ؛ رواية مسنة ؛ تمثيل.

Culture and values families in the novel of the elderly Algerian woman of letters

Abstract: This article examines the family values raised by the novels "Behind my grandmother's tears" ("Derrière les larmes de ma grand-mère") and "One day my mother will come back" ("Un jour ma mère reviendra") of the Algerian novelists Ferroudja Ousmer and Rabéa Hachemi, who began

* المؤلف المرسل.

writing at an advanced age. The focus will be on the manifestations of these values, and the issues raised by the family as a culture, its demands and constraints, and its challenges. Some cultural concepts that would highlight the role of women's creative experience, the mechanisms of their engagement and the signs of their depth and maturity in the presentation of the family, considered as one of the most relevant human issues for human destiny, will be adopted.

Key words: Values; family; culture; elderly novelist; representation.

1- مقدّمة: يكتسي فعل الكتابة دلالة خاصة لدى من بدأه في مرحلة متأخرة من حياته ، فإن ارتبط ذلك الفعل لدى عامة الأدباء بالتعبير الجميل ، الحر ، والواعي عن الحياة ، وتمثّل أشياءها وظواهرها في علاقاتها بالإنسان ، فإنه يزداد مع تقدم السن ارتباطا بالقيم الإنسانية وحفرا في التجربة الفردية والجماعية. وتُعد العائلة من بين أكثر ما يمنح تجربة الأديب دلالتها وخصوصيتها، باعتبارها المنطلق الذي ينشأ فيه ويتكوّن ، ويكتسب قيمه الاجتماعية ويستلهم مادته الإبداعية التي ما تفتأ ظلّالها تمتد على كافة أصعدة النصوص التي تحيا بما ترسّب في الذاكرة العائلية.

يزداد الكاتب استحضارا للعائلة في شتى صورها ، مع تقدم سن الكتابة ، وتبلور لديه قيم العائلة أكثر من أي وقت مضى من حياته ، فيلبي حاجة وجودية أساسها إجراء تعديل على الزمن الاجتماعي الذي لا يمنح مرحلة الشيخوخة امتيازات من طبيعة تلك الامتيازات التي تُمنح لمراحل الطفولة والشباب والكهولة ، فتكوّن العودة إلى العائلة ، بوصفها حضان الإنسان في كافة أطوار حياته، عودةً قائمة على مقابلة ومواجهة ثنائيات الشيخوخة/العجز/الموت بثنائيات الشيخوخة/التجربة/الحكمة.

يكون ذلك التعارض أكثر إحياء ورمزية لدى المرأة الكاتبة ، ذلك أن الشيخوخة النسوية ، وفق النظرة النمطية ، تكون مبكرة ومقللة/منتقصة من قيمة المرأة ، فتضطلع الكتابة بمهمة مواجهة تلك النظرة الدونية ، ورد الاعتبار لتجارب المتقدّمات في السن بأناملهن ، والسعي لتصحيح الاستلزام الذي يجعل قلة نشاط الفرد المسن مرادفا لقلة التزامه .

إن أقل ما يمكن قوله حول مسألة التزام الكاتب المسن ، هو أنه يجد في مرحلة تقاعده سبيلاً أرحب إلى الكتابة ، فيتفرغ لها ، ويجعلها شغله الشاغل ، فهو إزاء مرحلة انتقالية تُعد محصلة تجارب وتحولات شهدتها قبلاً ، تجلت على مستويات شخصية وجماعية ، حيث كان للعائلة قيمها أثرٌ في تكوينه كفرد وتنشئته كمبدع ، فيكتب الكاتب ، وقت تفرغه للكتابة ، وهو على وعي ، كما تقول روز-ماري لاغراف (Rose-Marie Lagrave) ، بأن «الشيخوخة هي الزمن الذي يستحضر فيه البيولوجي وحدة الجسد والفكر»¹ ، فتكون الكلمات ، أكثر من أي وقت مضى ، منابر قوية للفكر الذي يتغذى بقيم الإنسان ، التي ركيزتها الأولى العائلة .

إذا ما سلمنا بأن التقاعد مرحلة انتقالية أخرى من بين مجموع المراحل التي تشهدها حياة الإنسان ، قد تفضي إلى قطيعة مع نشاطاته المهنية ، فإنه قد يكون مرحلة مؤسّسة لإبداع يعد بالنضج والعمق ، يعالج أكثر القضايا اتصالاً بالإنسان ومحيطه العائلي الطبيعي . فكيف الحال إذا ما تعلق الأمر بالقيم العائلية التي أسهمت المرأة المسنة ، منذ القدم ، في ترسيخها ونقلها بين الأجيال في مجتمعاتنا ، والتي تعكف المرأة الأديبة المسنة اليوم في تمثيلها وتوثيقها أدبياً ؟

ولعل النموذج الأدبي الذي يطالعنا في هذا الشأن يتمثل في روايتي "وراء دموع جدتي" (Derrière les larmes de ma grand-mère) (2021) لفروجة أوسمير ، و"يوما ما ستعود أُمي" (Un jour ma mère reviendra) (2018) لربيعة هاشمي ، حيث ترجمت الأديبتان أواصر العائلة في المجتمع الجزائري ومثلنا القيم العائلية متجلية في شخصيتي الجدة والأم وعلاقتهم بالحفيدة أو الابنة ، في حالة تأرجح بين الماضي والحاضر ، بين حلم الحداثة وثقل العادات والتقاليد . فعلى ماذا قامت عملية التمثيل تلك ، وما خصوصيتها في رحاب مدونة أدبية نسائية اقترن إنتاجها بسن التفرغ للكتابة وحق صياغة تجربة الحياة ومطلب الشيخوخة ؟

2. تمثيل العائلة من منظور ناضج:

تتقاطع روايتنا "وراء دموع جدتي" و"يوما ما ستعود أُمي" في قضايا عديدة ، تصدرها قضية العائلة التي انبنت على أساسها الأحداث ورُسمت الشخصوس بعيون المتبصر المتمرس ، فيبرز الرباط العائلي القوي بين "لُولُوج" (Lolodj) ، بطلة الرواية الأولى ، وجدّتها (Yaya) ، التي تُعد ، في نظر الحفيدة ، رمز الصلابة والصبر والعطاء ، وقد اقترن بها عنوان العمل في كليته . كما تتجسد علاقة الطفلة الراوية ، في الرواية الثانية ، بأُمها وجدّتها الحاضرين ، وكذا

علاقة الطفل "موحوش" (Mouhouche) بأمه الغائبة التي ارتبطت عودتها المتأخرة، كما يشير العنوان، يموت الابن منتحرا وضياح أمل تنعم الاثنين بالعيش في حضن العائلة. تستوقف القارئ الكيفية التي مثلت بها "فروجة أوسمير" شخصية الجدة، فقد خصتها بفصلين في بداية الرواية، عرضت من خلالها حياتها وخصالها الجذابة التي تطبعها الهيبة، الطيبة والوقار، ما زاد من تعلق حفيدتها بها: «كانت لؤلؤج تحب جدتها كثيرا. لقد كان لوفاتها وقع كبير عليها، فظل حدادها عليها مستمرا لسنوات عديدة»². وهذه الصلة العائلية القوية التي تجعل الحفيدة تستذكر جدتها بعد سنوات طويلة من وفاتها، قد ترجم طورا حياتيا عُمريا آلت إليه تلك الطفلة وهو الجدة، ففي العمل ما يكفي من علامات تدل على طابعه سير الذاتى، ذلك أن حضور النظام المرجعي الذي تعكسه التواريخ، أسماء الشخصيات والأماكن والأحداث، يتأسس على «ذلك الجهد الدائم للكاتب الذي سيكمن في تحديد الكون وهو يخلق شعرية فردية؛ أو أيضا رواية حياته رواية استرجاعية مقيما شعرية للأنثى»³، فالأدبية، الذي يعد "لؤلؤج" تصغيرا واختصارا لاسمها، اتخذت من صورة الجدة المسترجعة صورة لذاتها في الماضي والحاضر في آن، ومثلت مشهد تلاحم الجدة والحفيدة بعيون الجدة، التي تُعد أقرب الناس فهما للطفولة بجمالية ذات متقدمة في السن.

تصور ربيعة هاشمي، من جهتها، مشهد تعلق الطفلة الراوية الشديد بجديها، بعدما انتقلت مع والدتها وأخويها (كمال ودليلة) إلى بيتهما الجديد رفقة الأب العائد من الجبل (الثورة) غداة استقلال الجزائر: «ثمة أماسي صُعب عليّ فيها الذهاب من عند جدي (Jedy). كنت أقبّله بكثرة، أتخطى سياج بيته. كنت أطلب من بابا (vava) السماح لي بالعودة لتقبيل جدي وسّتي (Sety) مرة أخرى»⁴.

حظيت الطفلة بحنان الجدّين، فكان حُضُنُّهما عوضا لغياب الأب، واستمر ذلك الفيض العاطفي حتى بعد تولّي الأب أمر أسرته، فيتجلى دورهما في غرس قيم الحب والعطف التي تقوم عليها العائلة. ولقد ضمنت ربيعة هاشمي مشاهد كثيرة تُظهر التفاف أفراد العائلة جميعهم حول بيت الجد، لاسيما وقت المحن، فذلك الفضاء يجسّد قيمة الجماعة التي يدعمها السكن المشترك باعتباره عاملا في التضامن الأسري، فالفرد في السياق الثقافي الاجتماعي الذي مثلته وأرادته الكاتبة هو- على حد تعبير بيير بورديو (Pierre Bourdieu)- «كائن من أجل الآخرين، وهو كذلك كائن من خلال غيره، فلا يمكنه أبدا أن يفصل مصيره الشخصي ومصير أبنائه عن المصير المشترك للجماعة العائلية»⁵، ولعل اتخاذ البيت الكبير

إطارا عاما لأحداث الرواية وملجأً لشخصها ، بما في ذلك الطفل "موحوش" الذي تعد قصة فراقه مع أمه البؤرة الرئيسة للعمل ، مما يعكس نظرة من أدرك أن جوهر التضامن الاجتماعي هي العائلة التي كان لامتداد أفرادها وأطرافها ، فيما مضى ، أثر عملي على تماسك النسيج الاجتماعي ، ولقد حرصت الأدبية على تمثيل الأسرة الممتدة في صورتها القديمة قراءة وتشريحا لأسرة اليوم النووية.

من المظاهر التي تترجم بنضج تحول القيمة العائلية بين الأمس واليوم في العاملين الروائيين ، ما جاء بخصوص الجدة التي أنهكها ماضي أليمٍ بسبب فقدانها ثلاثة من أبنائها في سبيل تحرر الوطن ، وهم الإخوة "أوسمير". تقول الرواية في آخر مقطع من الرواية: «من أين ستستمد قوة للعيش بعدما دفنت أبنائها في وقت مبكر؟ لم يكن البقاء على قيد الحياة سوى عذاب إضافي. ستظل دموعها تنهمر. ستسعى ، قدر المستطاع ، وقد جرفها هذا النهر المضطرب ، لبلوغ المصب حيث يتلعبها فم البحر المفتوح. أسفة! الموت. هاهي القصة المتوارية خلف دموع جدتي»⁶. فحرمان الأم من أبنائها ، ولو في سبيل غاية نبيلة ، يحول دون استمرار عائلتها. وترمز الدموع إلى حالة التيه التي لازمت الجدة مخافة انقطاع نسلها ، وكتابة المرأة في سن متأخرة ، كما صرحت فروجة أوسمير في أحد لقاءاتها الصحفية ، «هي في الغالب صرخة قلب ، تعرية»⁷ ، فبذلك تحفر الأدبية في الذاكرة العائلية إيمانا بمسؤوليتها في الحفاظ على إرث العائلة المعنوي ، وصيانتها من النسيان.

كذلك تستوقفنا النهاية التي آل إليها الطفل "موحوش" في العمل الثاني ، إذ يضع حداً لحياته ، وهو في الخامسة عشر من عمره ، بعدما يؤس من إمكانية العيش مع أمه والتنعم بحضنها ، فيتحقق ما أخبر به الطفلة الرواية في وقت سابق بخصوص ارتباط قدوم أمه برحيله. بهذا ينبئنا المقطع الآتي:

«- يوماً ما سأرحل. يوماً ما ستعود أُمي.

ذلك اليوم ، يا صديقي المسكين ، كان الشك في أن تلك العودة المنتظرة جدا ، لن تتم إلا بإعلان هلاكك ، على بُعد ألف ميل»⁸.

يحيلنا هذا المقطع إلى ما يترتب من نتائج سلبية جراء الفصل بين الطفل وأمه ، فمثلاً فقدت الجدة أولادها عنوة في العمل السابق ، بسبب المحتل الذي استهدف العائلة الجزائرية في أبسط صورها ، حُرِمَ الطفل "موحوش" ، في هذا العمل ، من رؤية أبيه الشهيد ، ومن العيش مع أمه التي منعها زوجها من التكفل به بل حتى من رؤيته ، فوقعا الاثنان ضحية

تعسف العادات المتصلبة والسلطة البطريكية. فنظرت ربعة هاشمي إلى تدهور قيم التكافل والمسؤولية والعطف والاحترام، التي تعد، كما يقول عطا حسين عقل محمود، «مجموعة القيم التي تعكس علاقة الفرد بأسرته: نظرته واتجاهاته نحو القضايا الأسرية، طاعة الوالدين، التضامن الأسري، نظراته واتجاهاته نحو المرأة؛ العمل، التعليم، المكانة...»⁹. وما دامت العائلة مكان نشأة الفرد الأصلي فإن كل ما يخص قيمها يخص المجتمع برمته، ويمكن المفارقة، كما جاء في نص الرواية، أننا «نخادع ذواتنا، ونحن نغذي خيالنا بمفاهيم وقيم لا وجود لها سوى في قراءتنا؟ لقد كانت الحياة مختلفة تماما. لقد حصرنا أولياؤنا تحضيرا سيئا»¹⁰. فكأن بالأديبتين تلفتان النظر بالحاح إلى ما لحق بالقيم العائلية من ضرر، وأصاب المجتمع الجزائري من آفات في شتى ميادين الحياة مرجعها الرئيسي العائلة.

سعت بذلك فروجة أوسمير وربعة هاشمي، من خلال أنموذجيهما الروائيين، إلى تمثيل القيم العائلية في تأرجحها المستمر بين الماضي والحاضر، مع إظهار محاسن زمن العائلة (الأسرة الممتدة)، ومساوئه على النساء والأطفال بدرجة خاصة، مع الحرص على تمثيل الشخوص والأحداث والأفكار تمثيلا ناضجا محنكا يسرد الفعل في جوهره وعمقه، صائغا إياه صياغة من أكسبته سنين العمر المتقدمة حنكة ورؤية تحن إلى الأجل والأنفع للإنسان وتنشدهما، فكما تتساءل مارتين بوايه وينمان (Martine Boyer- Weinmann) في كتابها "الشيخوخة تقول. أنثروبولوجية أدبية للسنة" (Vieillir, dit- elle. Une anthropologie littéraire de l'âge) : «هل ثمة اليوم عمرٌ مناسبٌ لإدراك الوزن النقدي للزمن على الفكر؟»¹¹. وتتساءل بدورنا: هل تجد القيم العائلية موضعا يليق بها في رهن الإنسانية؟ وهل تظل تلك القيم وثافتها قائمة وسارية مع تعاقب الأجيال وصدام الذهنيات؟

3. ثقافة العائلة: قضايا وتحديات:

تثير فروجة أوسمير وربعة هاشمي في عمليهما قضايا العائلة وفق سياقاتها الراهنة، فتستوقفنا عناصر نصية عديدة تحيل على القيم العائلية، التي باجتماعها يتحدد السلوك العام وتتراى عناصر ثقافة عائلية مجتمعية تتأرجح بين الماضي والحاضر، بين التقليد والحداثة. ويتجلى، ضمن مجريات الأحداث المتأزمة وعبر قناعات الشخوص المتفاوتة، صراعٌ

من طبيعة ذهنية، يفضي إلى تحديات كثيرة، تجعل من قضايا العائلة رهانات في الوقت ذاته. هذا ما سنعكف على إظهاره من خلال أمثلة نستلهمها من العاملين الروائيين:

3-1- الحوار باعتباره مطلباً قيمياً عائلياً:

حرصت الأدبیتان على تبيان مزايا الحوار وسط العائلة وبين أفرادها، باعتباره قيمة ثقافية يكتسب بها المجتمع هويته الأخلاقية وسر مناعته وبقائه ورفقيه، فتستوقفنا مشاهد تدخل الأقارب (العم "دا مامو" في "وراء دموع جدتي"، والجد في "يوما ما ستعود أمي") من أجل تسوية الخلافات العائلية، وهو ما يضمن إلى حد ما عودة الاستقرار وحالة التوازن كلما مالت العلاقات والأوضاع العائلية إلى التأزم.

تكتسي شخصية "دا مامو" (العم مامو) خصوصية التمرد على أعراف العائلة والقرية صيانة لقيم هذا الكيان الاجتماعي الجوهري، فهي راغبة في حياة عصرية، ولقد كلفها الرحيل عن العائلة غضب الأب والقطيعة معه لعدة سنوات، لكن ذلك لم يمنع ذلك الابن البكر، البار بوطنه، من التصالح مع الأب، وتشجيع ابنة أخيه "لولوج" على المضي قدماً في مشروعها الدراسي وتكوين ذاتها والحديث أمام الناس ومواجهتهم، وكذا العمل والطموح بكل ما أوتيت من قوة. ولقد كان سندا لها لدى أخيها الأصغر الذي منعها من متابعة الدراسة، بعد نجاحها في شهادة البكالوريا، فأفنع الأخ الأكبر برسالة وجهها إليه بضرورة متابعة دراستها، فهذا العم، كما جاء وصفه في الرواية، عم طلائعي «متمتع بعقل متفتح متباين تماماً مع نمط تفكير بقية أفراد العائلة»¹².

لا تتعارض صفة التففتح المنسوبة إلى عقل العم، في المقطع السابق، مع العمل بإخلاص لصالح العائلة والسهر على رقيها ورفاهيتها، فالتضحية التي تجلت في إقبال ذلك الفرد على مواجهة السلطة الأبوية من أجل الأخذ بزمام حياته، والعمل موظفاً في الشرطة الفرنسية أيام الاحتلال من أجل تحقيق استقلاله المالي، ثم التواطؤ مع جيش التحرير الوطني في عملية "العصفور الأزرق" ودخول سجن المحتل وتحمل التعذيب من أجل أداء واجبه الوطني، وكذا تشجيع بناته الخمسة وبنات أخيه على الدراسة والعمل، كلها أفعال تعكس قناعة ألزم ذلك العم نفسه بتجسيدها فكراً وسلوكاً خدمة لعائلته وقريته ووطنه، فكان مناصراً لفكرة التعليم ومنهاضاً للعنف بين أفراد العائلة وأبناء الوطن، زارعا قيمة الحوار في

وسطه العائلي إيماناً منه بأن العائلة خلية المجتمع الأولى والأساسية، إن صلحت صلح وإن فسدت فسد.

كذلك يحتل الجد، والد الأم، في رواية "يوما ما ستعود أمي"، منزلة خاصة لدى الحفيدة، ففي بيته استقرت رفقة أمها وأخيها وأختيها، بسبب غياب الأب الذي اعتقله المحتل لنشاطه الثوري، فكان ذلك البيت مأوى آمناً للجميع. تقول الراوية في هذا الشأن: «يمكنني، فيما يخصني، أن أقول إن تلك السنوات التي أمضيناها عند جدّينا كانت نعمة خالصة. فبينما كانت نار الحرب مستعرة في الخارج، كنا نشعر بالحب والأمان ونحن نتحصن خلف السياجات الحديدية لبيت جدي»¹³.

يعكس المقطع السابق قيمة عائلية إنسانية مشتركة، فبيت الجد ملك وملاذ لكافة أفراد العائلة في أوقات اليسر والعسر، فهو بيت يسع الجميع وإن ضاق فضاؤه وانحصرت رقعته، ويكفل للأطفال عناية وللنساء حماية، وهذا ما يترجمه دعاء الجد الذي أثار انتباه الحفيدة الراوية: «في إحدى الأماسي، سمعت جدي ينهي صلاته بشكر الله الذي منحه وسائل لرعاية الأطفال وصيانة شرف الفتيات»¹⁴. فتكمن الدلالة الرمزية التي ينطوي عليها هذا الدعاء في الإيمان الراسخ بضرورة سعي الإنسان في حياته لبذر وزرع قيم الأمان والحب والاستقرار في وسطه العائلي الذي إن تشعب أفراده وأبناؤه بها أصبح بمثابة ثقافة يحتمون بها ونهج حياة يتبعونه.

لا ينحصر بيت الجد على أفراد العائلة فحسب، بل يتوسع ليشمل الغير، وعلامة ذلك في الرواية إيواء الطفل "موحوش" الذي تبدأ محنته هو وأمه، بعد استشهاد والده في ميدان الوغى، فكان بيت الجد الذي لا يقربه من فيه في شيء - سوى أنه ابن صديق الأب الذي كتبت له النجاة بعد الاستقلال -، ملاذاً له، فاحتضنه وهو يتجرع محنة اليتيم والبعد القسري عن حضن الأم، كما احتضنه في النهاية وهو تحت صدمة تعنيف زوج العمّة له، فكان بستانه متنفساً له بقدر ما كان مسرحاً لحادثة انتحاره. ولقد وُصف ذلك البيت مرة أخرى، وقت لجوء أفراد العائلة جميعهم إليه، بأنه «الإطار الأفضل كي يستعيد موحوش قواه»¹⁵. وهذا يعكس، مرة أخرى، قيمة التضامن مع طفل لم تنصفه عائلته الأصلية، فوجد مواساة له عند الغير، فالعائلة الثانية في تبنيها المعنوي للطفل ترمز إلى الوطن الأم الذي لا يشعر أيّ من أبنائه مهما كانوا بالحرمان والتهيه في كنفه.

يسهم الجد بذلك في تسوية الخلافات العائلية ، بل يقترح بدائل لحالة النقص التي يتعرض لها الطفل ، ذلك أنه فتح أبواب بيته تضامنا معه وبادر بالوساطة بينه وبين خالته وأمه ، وسهر على ترسيخ قيمة الحوار العائلي ، باعتبار العائلة مجموعة بشرية تتضمن قيما تسير بمقتضاها وترقى بها إلى الأحسن. وهذه الصورة القوية التي ظهر عليها الجد في الرواية هي ما جعل الحفيدة تفخر به ، وهي لا تزال في نعومة أظافرها ، وتراه قدوة لها في حياتها. هذا ما تتلمسه في المقطع الآتي ، الذي أعقب مشهد الشهادة التي أدلت بها ضد أخيها الأكبر ، والتي وصفها الجد بالأمانة:

«سعيدة وفخورة بتقدير هذا الرجل العظيم. لقد أخذت عهدا على نفسي في سري بأن أكون لبقية حياتي عند حسن المكانة الرفيعة التي أنزلني إياها»¹⁶.

أن تتخذ الحفيدة جدها وجدتها قدوة لها في حياتها وأن تلتزم بالسير على نهج الصدق والحقيقة الذي رسماه للعائلة ، معناه اعترافها بالتضحية التي يقوم بها الأجداد في سبيل ترسيخ ثقافة العائلة والقيم ، ولعل «رسوخ القيم العائلية لدى الأجداد يثير أيضا السؤال الآتي: هل يمكن للأحفاد أن يصبخوا ورثة القيم التي نقلها أجدادهم؟ من المعترف به على نطاق واسع ، أن القيم تتأسس أولا في الطفولة ، جراء الاحتكاك بالأولياء ، ذلك أنهم مكلفون بتربية أبنائهم ، إلا أن قيم الأفراد تتطور تحت التأثير المضاعف لتجاربهم الشخصية وتطور الأفكار والأخلاق في أي مجتمع. إنهم معززون بخبرتهم العائلية ، ومع ذلك ينقل الأجداد إلى أحفادهم تجربة العائلة وتاريخها. فأي مكانة يحتلون إذن في عملية النقل؟»¹⁷. ولا يفرض هذا السؤال الأخير نفسه في روايتي فروجة أوسمير وربيعة هاشمي فحسب ، إنما يشكل قضية محورية تم عرضها وطرحها استنادا إلى رؤية نسوية متبصرة ، هي محصلة تجارب السنين وخبرة الأيام ، حرصت المبدعتان الجزائرتان على إيصالها إلى أجيال اليوم عبر إبداع أسس جسورا متينة بين الطفولة والشيخوخة ، قوامه كلمات وأفكار وقيم تحيي العائلة مقدار ما تحيا بها.

إن التحدي الذي يستنبطه القارئ من إقبال أفراد من العائلة ، في العمليين الروائيين ، على إرساء أسس الحوار العائلي ، يرتبط بسبل الحفاظ على هذه القيمة التي صارت نادرة في أيامنا ، فإن كانت العائلة «بنية اجتماعية يتأسس بموجبها النظام الاجتماعي ويتكاثر»¹⁸ ، فإن طابعها القيمي يلزم أفرادها بالتحلي بروح التواصل ، بشتى قنواته الهادئة ، أثناء مواجهة

مختلف حوادث الحياة والظواهر الاجتماعية والإنسانية ، ولقد جعلت الأدبیتان الاستعمار والعنف الأسري أكثر تلك الظواهر استدعاء للرأي والرأي الآخر ، والفكر الراجح. ومن بين ما يعزز الحوار في الوسط العائلي ، الأجداد الذين تدعو فروجة أوسمير وربيعة هاشمي ضمينا إلى ضرورة عودتهما ، ولو رمزيا ، وعودة الأعمام والأخوال وكل ما يمت بصلة إلى العائلة من أقارب بشتى تفرعاتهم ، ليسهموا جميعا في التنشئة التربوية والأخلاقية للأطفال ، ونشر ثقافة التألف والتعاطف والتماسك التي تنحصر في ظلها الخلافات والنزاعات من أي طبيعة كانت. وللتواصل الفعلي ، لا الافتراضي كما هو اليوم ، دور في استرداد العائلة صورتها الأصلية وتدعيم الأسرة النووية بما يخرجها من عزلتها وانطوائها على ذاتها ، وبما يمنح الأولياء دعما ومددا في مواجهة آفات الراهن وإكراهات العصر ، وذلك تحد آخر.

3-2- العنف باعتباره ظاهرة مقوضة للقيم:

مقابل الحوار والتواصل الممثلين بقوة في الروايتين ، عمدت الكتاتبان إلى تمثيل العنف العائلي ونبذه ، من خلال نماذج بشرية تعكس أقوالها وسلوكاتها رغبة في التسلط والتقليل من شأن الآخر ، ومن تلك الشخصيات جد الطفل "موحوش" الذي حال دون بقاء حفيده مع أمه "زينة" ، إذ أجبر ابنته على إعادة الزواج بعد استشهاد زوجها. هذا ما باح به "موحوش" للراوية: «بمجرد أن أكد رفقاء السلاح موت أبي ، أرغم جدي والدتي على إعادة بناء حياتها. وبذلك فصلت عن أمي ، وقد منعها زوجها الجديد من السعي لرؤيتي. لقد مر وقت طويل جدا دون أن أراها. تدعى زينة ، وهي جميلة جدا كما يوحي اسمها»¹⁹.

تقدم ربيعة هاشمي ، من خلال هذا المقطع ، صورة أخرى مغايرة لجد مارس عنفا أبويا على ابنته ، حينما دفعها إلى رمي ابنها اليتيم بين مخالب رجل غريب قاس لا يعبر عاطفة الأبوة اهتماما ، فحرمه من حضن الأم ، وبذلك جعل ذلك الجد ابنته وحفيده معا يعيشان البعد والتهيه المستمرين ، وهو ما يشكل أحد أسباب وضع الابن حدا لحياته ، إن لم يكن السبب الخفي الرئيس ، حيث ارتبطت عودة الأم ، كما يوحي بذلك عنوان الرواية ومتمنها ، برحيل الابن ، فمأساة الفراق ولدت صدمات نفسية مزمنة لدى الطفل الذي ظل سلوكه مضطربا في محيطه العائلي ، ومع العائلة التي تكفلت به ، إلى أن وقع ضحية لاغتصاب زوج عمته "سعدية" ، وهي الشخصية العنيفة الأخرى ، وأصيب بحالة اكتئاب لم يستطع الخروج منها سالها. وترجم الرسالة التي تركها للراوية حالة الانهيار هذه ، ولقد آثرنا إيراد قسم كبير منها لصلتها الوثيقة بقضية القيم العائلية:

«سُرفت طفولتي مني ، ودون أن أعلم أثرت بشدة على طفولتك. لقد زعزت حياتك الهادئة حينما أحضرت في حقائي تاريخي القائم على الكراهية والخزي والألم. لم تختاري أن تتعرفني إليّ مثلما لم اختر أن أصادف في طريقي قادر ، ذلك الوحش الذي ألحق العار بي وسلب مني كل شيء. بسببه لن أعرف أبدا الأمان. بسببه لن أستطيع أبدا أن أعيش حياة عادية. عبثا حاولت المقاومة وأن أستأصل الضرر الذي غرسه في داخلي ، لكن شبح الماضي ظل يطفو بلا هوادة وبشدة أكبر على السطح. هذا الصراع ضد الذكريات التي تلاحقني يرهقني ويدمرني. الوسيلة الوحيدة ، اليوم ، لوضع حد لهذا الضرر هو جر هذا العذاب كله معي إلى الموت»²⁰.

يتأرجح المقطع السابق في تبيان نتائج العنف على الطفل "موحوش" وعلى محيطه العائلي الجديد ، بين إيراد أسبابه البعيدة والقريبة ، فترتب عن تعنيف "قادر" ، زوج العمّة ، له لمدة ثلاث سنوات اضطراب سلوكه مع الآخرين ، لا سيما الطفلة الراوية التي ظلت لدى قدومه إلى عائلتها نافرة منه ، وبلغ العنف أوجّه حينما أقبل ذلك الشخص على الاعتداء على شرف الطفل ، فسلب منه ما تبقى من طفولته المنقوصة المحرومة ، ولم يدع له سبيلا للأمل في الحياة ودافعا للبقاء فيها والتمسك بها ، ذلك أن «العنف ينكر حق الآخر في الوجود. بالعنف يتم المساس بكرامة الضحية ، بعزة نفسها ، بهويتها. لا يمكن العيش مطلقا بدون كرامة وهوية وعزة نفس»²¹. وبذلك اتسعت دائرة اليأس لدى طفل لا يتجاوز الخامسة عشر من عمره ، باكتمال اتساع دائرة العنف الممارس عليه طوال حياته القصيرة. وما لم يتحمّله ذلك الطفل ببراءته ، هو إلحاق الأذى بطفلة تبلغ من العمر ثماني سنوات ، عرف معها ومع عائلتها أجمل وأهدأ أيام حياته ، ومن ثم لم يقبل تعكير صفو طفولة أخرى وعائلة أخرى توفرت لها ولأفرادها أسباب العيش السوي الكريم ، من أولياء وأجداد وأقارب ، ومسكن وتعليم ، وحب وطمأنينة ولعب ومرح.

إن القيم العائلية التي تخلق لدى أفرادها شعورا بالانتماء مفقودة لدى الطفل "موحوش" ، الذي عاش اليتيم والحرمان ، وبذلك لم ينشأ لديه سلوك إيجابي ، كما هو حال الأطفال الآخرين في الرواية ، الذين تتجلى في سلوكياتهم قيم المسؤولية والاحترام والطيبة ، التي يكتسبها الإنسان من محيطه العائلي منذ صغره وترسخ لديه مع مرور العمر ، فتتوطد علاقاته مع أفراد عائلته ومجتمعه ، ويشعر بالوحدة ويعتز بها ويسعى للدفاع عنها ، فيثق بنفسه وعائلته ومجتمعه.

سلب العنف من "موحوش" طفولته، فحرمه من اكتساب قيمة التربية التي تُكسب الطفل شخصية وسلوكا حسنين، ولقد جعلت ربيعة هاشمي نهاية روايتها مقترنة بنص الرسالة التي تركها "موحوش" للراوية، هذه الطفلة- لسان حال الكاتبة- التي تقرر أنه لم يكن بمقدورها فهم وإدراك خطورة ما فيها من دلالات عميقة، لحدائث سنهنا. ويوحي ذلك التعليق الأخير بقراءة بعدية ناضجة حرصت الكاتبة أن تضعها وتدعها تحت تصرفنا، نحن قراء اليوم، لتأويل حياة طفل رهن واقع العنف الذي تربى فيه ونشأ عودة أمه بموته، وراهن على ضياع نفس بريئة في مستقبل عمرها وحياتها. ولم تغفل المبدعة عن تمثيل ظاهرة سلب القيم العائلية من الأطفال، على اعتبار ما سيكون، من منطلق امتلاك الأديب رؤية بعيدة تتخطى الزمان والمكان، وعلى اعتبار ما كان، من منطلق ثراء التجربة الإنسانية التي يتمتع به المبدع المسن، كربيعة هاشمي وفروجة أوسمير، حيث تغدو الفكرة وسيلة وغاية في آن.

من الشخوص التي تحكّم العنف في جوانب من سلوكها، في رواية "وراء دموع جدتي"، شخصية أخ "لولوج" الأصغر، الذي ظل يمارس نوعا من الرقابة على أخته التي تفوقه سنا، ويحاول تقييد حريتها، وإعاقة مسيرة تكوينها، فيشدنا مشهد تنغيصه عليها فرحة نجاحها في البكالوريا، ملحا، من خلال أمهما، على وجوب توقعها عن الدراسة، مهددا بترك العائلة إن لم ترضخ لأمره: «هذا الامتحان الذي حازت عليه بعد سنة من الكدح والحرمان، محل ريب هذا الأخ، إذ لم تكن طريقة تفكيره في تناغم مع مسألة تعليم المرأة. فلم يكن ليقتبل، وهو المنغلق على فكرة التحرر النسوي، أي تحول في حياة أخواته، لاسيما أن يطرن بأجنحتهن، فذلك سيقوّض رؤيته للعالم. كم مرة هدد بإيقاف تعليم لولوج عند أدنى خلاف مع أمه أو أي فرد من الإخوة»²².

إن كان العنف الذي يمارسه الأخ على الأخت أقل حدة في ظاهره من العنف الذي عايناه في شخصية زوج العمّة في رواية "يوما ما تعود أمي"، فإنه يلحق بالضحية أضرارا نفسية كبيرة من شأنها ثني عزيمتها على مواصلة مسيرة تكوينها، وتضييع جهدها الفكري ومثابرتها سدى، فالتهديد بإيقاف الأخت عن دراستها يدخل في خانة المنع التي تندرج بدورها في نطاق أوسع هو العنف الذكوري الذي يمارس على النساء إظهارا لقيمة الرجل وغلبته على المرأة وتوجسا من أي مبادرة تحررية منها، ذلك أن «لتعظيم القيم الذكورية مقابلا مظلما في أنواع الخوف والقلق التي تثيرها الأنوثة»²³، فسلوك الأخ عنف صريح غايته تثبيت رجولته أمام الآخرين، وردة فعل سلبية تجاه المؤنث، أو بالأحرى مظهر من مظاهر الخوف منه.

تتجلى قيمة الذكورة، في المقطع السابق، باعتبارها مقابلاً أو بالأحرى ندا للأنوثة، فالعائلة الممثلة يتجاذبها طرفان: الأخ الذي يمارس الهيمنة، والأخت التي تقاوم في صمت* من أجل تكريس حقها في التفكير والتعليم. وأسلوب الإكراه الذي ينتهجه الأخ في سبيل إخضاع الأخت، بذريعة تأكيد رجولته وتذكير نساء العائلة برمتها- بما فيهن الأم- بـ «الهوية المنتقصة التي خصصت لهن اجتماعياً»²⁴، مظهر يترجم ثنائية "الخضوع والهيمنة" التي سعت فروجة أوسمير لطرح قضيتها في روايتها، تمثيلاً للوضع النسوي في بلدها الجزائر، وفي بلدان عديدة من العالم، وإظهاراً لما يترتب عن العنف من أحكام مسبقة وممنوعات في حق المرأة، ويتولد من تصلب وتطرف على مستوى الذهنيات، لدى الجنسين.

تُجسد الأم، في رواية "وراء دموع جدتي"، استعداداً للخضوع الأنثوي وقابلية لاستيفاء مستلزمات المخيال الذكوري وعناصره، فهي- كما جاء في أحد العناوين- «أم مهياة (formatée) للخضوع»²⁵، تبدي قناعة بقدرها وانصياعاً لأبنائها الذكور، وتقيم وزناً لزوجها المتوفى وتدعّن لسلطته الذكورية في تربية بناتها، فلم تواجه ابنها الأصغر حينما أراد منع أخته "لولوج" من مزاولة الدراسة في الجامعة، إذ لم يكن بمقدورها تجاوز ذلك القرار الذكوري. وكذلك أعلنت رفضها مشروع ابنتها لتحضير شهادة الماجستير، بعد نيلها شهادة الليسانس من جامعة الجزائر، ويظهر المقطع الآتي معاتبة الأم البنت على مطلبها:

«لست كالمعتاد زيّ الغول للتأثير على مشاريع ابنتها. أجابت وهي تقرن القول بالفعل: أعطيناك اليد وتريدين الآن الذراع كلها»²⁶.

في هذا المقطع ما يؤشر على عنف ظلت الأم تمارسه على ابنتها كلما أبدت أي نية أو رغبة، ولو على صعيد اللسان، في تحسين وضعها الوجودي والأنثوي، ويعد ذلك العنف الأنثوي وجهاً مكملًا للعنف الذكوري الذي يطال البنات، ولقد أوردت فروجة أوسمير مقولة «نساء ضد نساء»²⁷ للدارسة الإثنولوجية الفرنسية كامي لاکوست دوجردان (Camille Lacoste- Dujardin)، المتخصصة في الثقافة القبائلية الجزائرية، والتي استوحيتها من عنوان أحد كتبها "أمهات ضد نساء" (Des mères contre les femmes)، ولقد خدمت هذه العبارة في رواية "وراء دموع جدتي" سياق الرقابة المفروضة على الابنة منذ صغرها، ما تسبب في انغراس صفات الاحتشام والحياء والخوف والتردد في سلوكها، فلم تمتلك الجرأة الكافية لمواجهة الأخ لما منعها من مزاولة دروسها بعد ظفرها بشهادة البكالوريا، ولولا تدخل عمها لما

أتيح لها فضاء الجامعة. وكذلك أذعنت لقرار أمها لما رفضت فكرة تحضيرها لشهادة الماجستير.

اتخذت فروجة أوسمير من الأم في روايتها نموذجا أنثويا يُظهر كيف تكون الأمهات خاصة، والنساء عامة، أداة أساسية مسخرة في المجتمعات المغاربية والمشرقية، من أجل فرض الهيمنة الذكورية على البنات خاصة، والنساء عامة، ذلك أنه «يحدث أن يكون الرسل المتحمسون لتلك الهيمنة الذكورية، الممتهنون غرسها وتوالدها، هن النساء أنفسهن: الأمهات»²⁸، إذ يتولين غرس قيم الخوف والاحتشام في بناتهن وقرباتهن، ويمارسن عليهن ما مورس عليهن بدورهن، على مر الأجيال، من قيود وموانع تحد من حرية المرأة بقدر ما تعتقها نفسيا ووجدانيا وفكريا.

تستوفي أم "لولوج"، باعتبارها أنموذجا قبائليا جزائريا للأم الخاضعة في عديد المجتمعات الإفريقية وعبر العالم، بما ترسخ لديها فكرا وقولا وسلوكا من أوصاف الرضوخ للأبناء الذكور والتصدي للبنات وقمعهن، صورة المهيمن عليهم رمزيا، الذين يسهمون عن معرفة واعتراف، كما يشير بيير بورديو، في «تمرير الهيمنة عليهم عبر قبولهم الضمني للحدود المفروضة»²⁹، اعتقادا من هؤلاء أن ذلك يخدم العائلة ويقيها من مخاطر ضياع قيمها، أو كما جاء على لسان الأم في الرواية: «كل حلم وكل رغبة يجب أن يُدْفَن كي لا يكون التوازن العائلي عرضة للخطر»³⁰. ولكن الرسالة التي أرادت الأديبة أن توصلها هي عكس ذلك، فما يهدد القيم والعائلة في أن هو العنف الذي تغيب في وسطه ثقافة الحوار والمصلحة العائلية، وتضطرب أواصر الأمومة والأبوة والبنوة، ويتراجع الاحترام. ويمكن معاينة هذا في شخصية "لولوج" التي لا ترغب في أن تتشبه ابنتها بجدها، دون أن يكون ذلك كرها للأُم ونفوراً منها، ولا أن تعيش ما عاشته هي كابنة وبنّت لم تحقق ذاتها، وإنما ما تريده لها هو أن تنعم بحياة عائلية اجتماعية أفضل، يكون فيها لحرية امتلاك ذاتها والتصرف فيها نصيب أوفر وقيمة أكبر.

تجلت في العمليين الأدبيين المخاطر التي ينخر العنف بسببها كيان العائلة، والتي تبلغ حد تقويض القيم العائلية، وترك المجال لطواهر غير صحية، تزيد الهوة سعة وعمقا بين الأبناء والآباء والأحفاد والأجداد وبقية الأقارب بعضهم مع بعض، ولقد جاءت نظرة ربيعة هاشبي وفروجة أوسمير إلى العلاقات العائلية على أساس غياب/ أو حضور قيم الاحترام والثقة والصراحة بين الجنسين ومختلف الفئات العمرية. وتلك القيم التي صوّرت باعتبارها

مشاعر إنسانية قوية من شأنها تقوية أواصر القرابة والانتماء العائلي والمجتمعي ، هي أساس التعارف والتفاهم والعيش المشترك في رحاب العائلة ، ما يعبّد الطريق للعيش المشترك ومعاً في كنف المجتمع والوطن والإنسانية ، وتتبلور هذه الرؤية أكثر لدى من جعل من الأدباء ، على غرار أديبتينا ، العائلة أولى مسائل الأدب وأجلّها في سن الشيخوخة.

3-3- التنشئة المعرفية والثقافية في رحاب العائلة:

يشكل طلب العلم قيمة جوهرية في روايتي ربيعة هاشمي وفروجة أوسمير ، حيث نرى إقبالا جماعيا لأفراد العائلة على الدراسة في العمل الأول ، فالرواية وأختها "دليلة" تلميذتان في الصف الابتدائي ، وأخوهما الأكبر "كمال" تلميذ في الصف النهائي الثانوي ، ويحظى هؤلاء جميعهم بعناية الوالدين والجددين وتشجيعاتهم. كذلك اجتازت "لولوج" في العمل الثاني أطوارا تعليمية أساسية إلى أن التحقت بالجامعة حيث حازت على دبلوم في الاقتصاد ، ولم تجد بالمقابل من يشجعها على الدراسة من أفراد عائلتها سوى عمها "مامو" وخالها "موموح" ، اللذين ساعداها في إقناع إخوتها وأمها بضرورة دراستها.

يستوقفنا في الروايتين مشهدهان متقاربان إلى حد ما ، يقترنان بظروف التحضير لشهادة البكالوريا بالنسبة للابن البكر "كمال" الذي سخرت له إمكانيات مادية ومعنوية في سبيل بلوغ هدفه ، والبنات "لولوج" التي لم يمنحها إخوتها الخمسة الظروف المعنوية التي تُعينها في سنتها المصيرية تلك. بلغت عناية الأب بابنه أن فكّر حتى في مأكله:

«منذ أن شرع أخي في التحضير لهذا الامتحان المعروف بصعوبته ، كان فافا (Vava)** يبذل قصارى جهده ليوَفّر له شروط النجاح. لقد تدخل حتى في فضاء الطبخ الذي يُعد غالبا ملجأ يَمّا (Yemma). لطالما أثقلت دماغها لإعداد وجبات متوازنة ومغذية ، لكن فافا كان يتذمر طوال الوقت. فظل يكرر بلا كلل:

- ليس بهذا الأكل سيتمكن ابنك من الذهاب بعيدا في دراسته. تعلمين جيدا أن الرياضيات تستنزف المعدة ، وأنها تتطلب طاقة!»³¹.

خلاف "كمال" ، لم يُعن "لولوج" ، البنات الوحيدة في عائلتها ، في مسارها العلمي إلا عزميتها ورغبتها وطموحها في الظفر بما يكفل لها تغيير قدرها والفوز باحترام العائلة والآخرين:

«كانت لولوج تجهل ما كان يخبئه لها القدر. لم تكن تتصور أن حياتها ستنحو منحى آخر غير الذي رُسم لها. لقد نجحت ، بوصفها تلميذة مجتهدة ، فوق ما كانت تأمل. فكانت

بطموحها تنظر أبعد من أرنبة أنفها ، وتحلم أن تحمل شارة الاستحقاق. بدت الحياة وكأنها قد ابتسمت لها على قدر طموحاتها. إنها الأولى في الحي التي انتزعت البكالوريا. ها هي في الشارع الذي يقود نحو التحرر ، لقد انفتح العالم فجأة أمامها. هذا ما كانت ، على الأقل ، تعتقده! ³².

بقدر إقبال "كمال" و"لولوج" ، في المقطعين السابقين ، على التعلم والدراسة ، بقدر تفاوت ردة فعل عائلتيهما تجاه ذلك الأمر الجلل ، فالأب يرى في تفوق ابنه علامة فخر له وللعائلة ، لذا لا يدخر جهداً لإمداده بالدعم المناسب ، أما الابنة فكان عليها أن تستمد موارد قوتها من عزميتها. ويترجم هذا التعارض الملاحظ بين الابن والابنة في العمليين ، نظرة التمييز التي ظلت قائمة بين الجنسين في مسألة التعليم ، ولقد عبرت عنها الكاتبان بنوع من المسافة التأملية ، التي اقتضتها تجربة السنين وروية ما كان بمنظار ما ينبغي أن يكون.

إن التعليم ، مع أنه قيمة معترف بها في المجتمعات المغاربية منذ أقدم العصور ، إلا أنه كان فيما مضى حكراً على الذكور ، إذ كان الأولياء ، الآباء بدرجة خاصة ، يرهنون أملاكهم من أجل أن يضمنوا لأولادهم فرصة الاستفادة من مزايا التعليم ، إيماناً منهم بأن الدراسة تفتح أبواب النجاح والرفاهية أمام طالبها ، فالعلم وفق العقلية الذكورية يزيد الرجل رفعة وهيبة وسلطة ، أما بالنسبة للمرأة فكان سعيها لطلب العلم من أجل لفت انتباه العائلة إليها ، والاعتراف بمدى قدرتها على جلب فخر المجتمع بالعائلة.

يُظهر المقطعان السابقان كيف أن الوالدين بتوفيرهما ظروف الدراسة لابنهما البكر ، فضلاً عن الاستعانة بأحد الأقارب (العم "مصطفى") لدعمه علمياً في عطلة نهاية الأسبوع ، يقوّضان ، بصورة غير مباشرة ، المقولة القائلة بأن "العلم يؤتى ولا يأتي" ، ومع ذلك لم يفز بشهادة البكالوريا بسبب الظروف النفسية العصيبة التي مرت بها العائلة بعد وفاة الطفل "موحوش" في بيت الجد. أما الفتاة "لولوج" فقد اتخذت الأسباب التي تتيح لها بلوغ نقطة النجاح بمفردها ، ورفعت تحديات كثيرة وحدها ، فأنت العلم لتنال به حريتها وتفتح ما أغلقته أبواب الإقصاء والاضطهاد.

ولئن تضمنت رواية "يوما ما ستعود أمي" رسالة "موحوش" للرواية ، يعترف له فيها بفضل عائلتها في إسهاده خلال الفترة الوجيزة التي أمضاه في كنفها ، فإن في رواية "وراء دموع جدتي" أيضاً رسالة بعثها عم "لولوج" لأخيها الأكبر "فروروش" (Vroroch) يحاول فيها إقناعه بضرورة السماح لها باستكمال الدراسة في الجامعة ، ولعل الخطاب الذي تضمنته الرسالة يشير إلى مكانة التعليم وفوائده بالنسبة إلى الجنسين والعائلة عامة:

«أصبح التعليم اليوم رائجا، إنه مؤشر التقدم، فهو ضروري، وهو ضمان الحياة ونورها. هو الذي يحدد في الوقت الراهن مستقبل الإنسان والبلد، فلا تتطور أمة أو يكون لها موقع إيجابي أو سلبي بين مصاف الأمم إلا بالنظر إلى درجة التعليم المقدم فيها والميزانية الممنوحة له»³³.

تُطلعنا الرواية على تسليم الأخ الأكبر أخته هذه الرسالة وهي في سن التقاعد، خلال حديث جمعتهما حول طبيعة الأعراف السائدة فيما مضى وتطور المجتمع، وهذا يوحى بالطابع سير الذاتي للمشاهد ولأحداث القصة المروية في الرواية، ومع أن الرسالة مؤرخة في 09 جويلية 1975، وقد اصفرت بفعل الزمن، إلا أنها أثرت من الماضي لا سبيل لمحوه، وهي - وهو الأهم - تعطي فكرة عن رؤية التقدميين الجزائريين، والعلم واحد منهم، إلى التعليم بعد مرور ما يزيد عن عقد من استقلال الجزائر واسترداد سيادتها الوطنية، فلم يعد هناك خيار آخر أمام الدول، والجزائر الفتية، سوى تمكين جميع الأفراد من ذلك الحق الحيوي وتعميمه على كافة مستويات الحياة، وإلا بقيت البلاد والعباد تتخبط في دائرة الجهل التي لا تقل خطورة وضرا عن الاستعمار ذاته الذي من طبائعه أن يخلف وراءه الأمية والغفلة والجهالة، ويراهن على استفحالها على المدى الطويل.

الخطاب الذي أراد العم تمريره عبر رسالته إلى أبناء أخيه، خطاب تنويري، قصد به العائلة، باعتبارها أولى عتبات النهضة والإصلاح وأبرز منابر القيم، وقصد أيضا النخب الثقافية والسياسية التي يُعد التعليم جسرا متينا لها نحو المعرفة والتنمية الفعلية المستدامة للوطن، فيتم استلهام روح التقدم بما توفر من زاد علمي ورصيد معرفي وقيم ثقافية تأسست على ركائز الأخلاق والعلم والعمل، ذلك أن ميزانية التاريخ هي نشاط فكري حركي، وكما يبين مالك بن نبي فإن «هذه الميزانية المكونة من صنوف النشاط الإيجابي هي في الحقيقية ميزانيات من القيم الثقافية»³⁴، تضمنن للأمة نهضتها الصحيحة والعملية، وتذهب بها في الاتجاه الصحيح.

ومن بين ما يعكس أجواء الإقبال على العلم والتعليم في رواية "يوما ما ستعود أمي" تحمس الطفلة الراوية للدراسة ومداومتها على قراءة الروايات، لاسيما بعد تصالحها مع "موحوش"، حيث شرعت تقاسمه كتبها، وهو ما يحيل إلى علامة ثقافية مقترنة بمسار التحصيل المعرفي الذي يبدأ من مرحلة الطفولة، حيث «يشرع الأطفال في استخدام الأدوات الثقافية استخداما نشطا»³⁵. وبذلك نشأت بين الطفلين أجواء جميلة من القراءة التنافسية

والألعاب التربوية واللغوية المغمورة بالبراءة والمتعة والرغبة ، ولم تنطفئ تلك الرغبة لدى الطفل إلا بعد تعرضه للإساءة على يد زوج العمه ، فبادرت الراوية بإعادته إلى أجواء القراءة ، باقتراح رواية أخرى للأطفال ، عنوانها "نادي الخمسة. هجوم معاكس" (Le Club des cinq. Contre attaque) للآديبية البريطانية إنيد بليتون (Enid Blyton)، إلا أن الطفل لم يكتثر للأمر بسبب حالته النفسية المتردية. ولأن الكتاب هو همزة وصل الطفلين وفضاء تقاربهما وتناغمهما وانغماسهما في قراءة مشوقة وأجواء بهيجة وهادئة وتجارب مثيرة³⁶، أثر "موحوش" أن يترك رسالته بين صفحات تلك الرواية الأخيرة التي لم يفرغا من قراءتها، قبل أن يضع حداً لحياته، لعظم ما أصابه وقله حيلته كطفل أعزل في مواجهته. وكأني به ، ومن خلاله ربيعة هاشمي ، يتركان وصية للراوية الطفلة ، القارئة الأولى ، بضرورة الاستئناس بالكتب واتخاذها مؤونة معنوية ومددا روحيا في أوقات الشدة والرخاء وفي السراء والضراء.

كذلك تضمنت رواية "وراء دموع جدتي" علامات ثقافية كثيرة، تتراوح بين: أسماء كُتاب جزائريين ، أمثال كلثوم ستالي ، يوسف مراحي ، آسيا ياسين ، حسن مترف (ص.16)، مالك حداد (ص.22)، وسيلة تمزالي (ص.23)، محمد بن شيكو (ص.83)، نور الدين سعدي ، أمين الزاوي ، مایسة باي ، سعيد سعدي ، عبد المجيد مرداسي ، دحو جربال ، حند سعدي ، رشيد أولبشير ، يونس عدلي ، مولود أونوغان (ص.ص.89-90)، مولود معمري (ص.122)؛ وكتاب أجانب ، أمثال بيير بورديو (Pierre Bourdieu) (ص.23)، إميل زولا (Emile Zola) (ص.34)، كامي لاکوست دوجردان (Camille Lacoste- Dujardin) (ص.73)، مونتسكيو (Montesquieu) (ص.91)؛ وأسماء فنانيين تشكيليين جزائريين ، أمثال دونيز مارتينيز (Denis Martinez) (ص.16)، محمد رسيم (28)، أزواو معمري (ص.83)؛ وأجانب ، أمثال ماريوس دي بوزون (Marius de Buzon) (ص.76)؛ وأسماء مغنين جزائريين ، أمثال أيت منقلات (ص.69)؛ وأجانب ، أمثال جان فيرات (Jean Ferrat) (ص.88)؛ وكذا اسم الشاعر والحكيم الجزائري الشيخ محند أولحوسين (ص.49)، وأسماء أساتذة من كلية العلوم الاقتصادية بجامعة الجزائر ممن درّسوا "لولوج" ، أمثال بن إسعد ، بوزيدي ، بن أشنهو ، قوميان ، علي تودرت (ص.83)؛ وبين عناوين مؤلفات أدبية ، كرواية "الهضبة المنسية" (La colline oubliée) لمولود معمري (ص.122)، رواية "من أجل سعادة النساء" (Au bonheur des dames) لإميل زولا (ص.34)، وحكاية "علاء الدين وبساط الريح" الواردة في كتاب "ألف ليلة وليلة" (ص.30)؛ والسلسلة التلفزيونية

الأمريكية "البيت الصغير بين المروج" (La petite maison dans la prairie) (ص.64)، علاوة على الإشارة إلى المهرجان الصيفي المتنقل المنظم دوريا في منطقة القبائل الجزائرية والمسمى "تحدث عن الفنون" (Raconte-arts) (ص.16)، وكذا صالون الكتاب ببلدية بوجيمة التابعة لولاية تيزي وزو(ص.11).

كل ما عُده أعلاه علامات نصية تضمنتها الرواية لتبوح بسر وغاية انكتابها، فعلى المبدع أن ينفس في محيطه الثقافي والاجتماعي ليجد متنفسا لأفكاره عبر ما يدور من حوالبه وينضج في أعماقه، على نار هادئة، ولقد بلغت "لولوج"- لسان حال الكاتبة- حالة من الاستعداد الفطري للإبداع، إذ «أصبحت رغبة الكتابة هاهنا، أكثر من أي وقت مضى، وهذه النزوة لم تعد قادرة على التحكم فيها. أمسكت قلما أخذ في الانزلاق بأقصى سرعة على الورق. ها هي ذاهبة على بساط من الريح في رحلة خطية إلى الماضي»³⁷. وتكون حالة الهذيان هذه في حالة المبدع المسن في أوج نشاطها ونضجها ووعيها بما كان وما ينبغي أن يكون.

تُحيل العلامات الثقافية التي أثنت بها فروجة أوسمير عملها، إلى العوامل التي تسهم في التنشئة العلمية والمعرفية للمتعلم، فهو بحاجة ماسة إلى أن يحتك بالأوساط الثقافية الفنية المعرفية في مختلف مظهراتها، ويكتسب معرفة علمية بقدر اكتساب معرفة ثقافية، وبذلك يتكون الإنسان ثقافيا ومعرفيا، ويكون «صنيعة للثقافة ابتداء من مرحلة طفولته»³⁸، ليصبح تدريجيا، مع أفراد آخرين، فردا قادرا على صناعة الثقافة، ومفعلا للمشهد الثقافي في بلده أو على نطاق أوسع.

ركزت ربيعة هاشمي وفروجة أوسمير على تمثيل قيم التعليم والثقافة التي تكون العائلة حضنها الطبيعي الأول، ومحطة التحدي الضرورية لنقلة أخلاقية سلوكية نوعية على صعيد المجتمع، فبدا اهتمام الأولى بالأطفال بدرجة خاصة، وبقابليتهم للاكتساب المعرفي والتنشئة الثقافية، إذا ما أدت العائلة دورها في التواصل معهم وتحفيز مدركاتهم، واقتربت نظرة الأدبية بهذه المرحلة العمرية من حياة الإنسان باعتبارها مشتتة تُغرس فيها القيم التي إن لم تتعهد بها العائلة بالرعاية والمرافقة تضررت وتضرر المجتمع. وبدا اهتمام الثانية بالمرأة في مستقبل عمرها والقيم المعرفية الثقافية التي إن توفرت لها في بيئتها العائلية حققت بها وثبتها الذاتية، في ظل قيم الاحترام والثقة والجماعة المتبادلة. ومثلما تنهض المرأة بعائلتها حملا ومخاضا وولادة وتربية، على العائلة أن تنهض بها عرفانا وتقديرا وامتنانا، فبقدر ما تحمل الحياة في أحشائها بقدر ما تحمل أسباب رقي تلك الحياة.

ما تتفق حوله الروائيتان هو تمثيل العائلة في جدليتها مع القيم ، ومحاولة النظر إلى تلك القضية بمنظار من يبحث عما ضاع وبقي واستحدث بفعل الزمن وتغيرات الإنسان ، فالتجربة التي تتمتع بها الكاتبتان الجزائريتان تؤهلها لأن تحرصا ، مع ما في الكلمة من نسبية ، على «إعادة الاعتبار للذات الأنثوية المسنة في سياق روائي»³⁹ ، والسعي لمساءلة ثقافة العائلة وقيمها ماضيا وحاضرا.

4. خاتمة: تقضي بنا هذه الدراسة المرتبطة بتمثيل القيم العائلية من منظور الروائية الجزائرية المسنة ، من خلال روايتي " وراء دموع جدتي " و "يوما ما ستعود أمي " ، إلى مجموعة من النتائج ، نعددها على النحو الآتي:
- العائلة ، باعتبارها مهد الإنسان في بداية عمره وشغله الشاغل في شيخوخته ، هي محل اهتمام ومساءلة الأديبتين فروجة أوسمير وربيعة هاشمي ، بحيث يمكن إدراج عمليهما ضمن أدب (رواية) العائلة.
 - النظر بحنين وتدبر إلى قيمة الجماعة والسكن/العيش المشترك السائرة في طريق الاندثار بسبب التحول من الأسرة الممتدة (العائلة) إلى الأسرة النووية.
 - التحول الحاصل في العائلة الجزائرية أفقدها سمات كثيرة عُرفت بها سابقا ، وأفرز علاقات جديدة بين أفرادها.
 - التركيز على السلطة داخل العائلة وأثرها في/على التنشئة التربوية للطفل ، وتحديد الأدوار والوظائف المسندة إلى أفرادها على أساس الجنس والسن والوظيفة.
 - التحول الحاصل في القيم العائلية مرده العائلة ، فمنه ما يُحسب لأفرادها فيما له صلة بحرية العيش والتصرف في كنفها ، ومنه ما يحسب عليهم في كل ما له صلة باندثار قيم التكافل العائلي والشعور بالانتماء والوحدة.
 - إسهام قيم الحوار والتواصل في إرساء ثقافة عائلية لا يعرف المجتمع في كنفها تصدعات من أي طبيعة كانت ، ولا يكون موضع تشكيك أفرادهم ونفورهم وهجرانهم.
 - العنف ومخاطره الكبيرة على العائلة وقيمها ، وتقويضه لثقافة التعارف والعيش المشترك التي لا تُكتسب ولا تُتأسس حيث يغيب الاحترام والثقة والصراحة بين الجنسين ومختلف الفئات العمرية. وهي القضية الكبرى الأخرى التي خصتها الأديبتان باهتمام خاص

على اعتبار ما شهدته العائلة الجزائرية قديما وما تشهده حاليا ، وما ينبغي أن تكون عليه مستقبلا.

- لقيم التعليم والثقافة دور أساسي في التنشئة العائلية والاجتماعية السوية للطفل ، فهي التي تصنع مواطن الغد الواثق بنفسه والمعتز بانتمائه. وللمرأة حق في تلك المواطنة التي لن تتأتى ما لم تبادلها العائلة أولا والمجتمع حتما قيم الاحترام والثقة والمسؤولية التي أنشأت عليها نفسها وأبناءها وربت الناشئة على ثقافتها.

- السؤال الذي يظل قائما اليوم ومؤرقا للأدبية التي غذى الزمن والتجربة فكرها ومخيالها ورؤيتها ، كحال فروجة أوسمير وربيعة هاشمي ، يمكن صياغته على النحو الآتي: هل ستدرك العائلة الإنسانية ، يوما ما ، أن عودة القيم مرهونة بعودة الأم والجدة ، عودة لا مكان فيها لدموع الإقصاء والعنف والطفولة المسلوقة والحلم المُصادر.

5- مصادر البحث ومراجعته:

- بيار بورديو ، الهيمنة الذكورية ، تر: سليمان قعفراني ، مراجعة: ماهر تريمش ، المنظمة العربية للترجمة ط1 ، بيروت ، 2009.
- عطا حسين عقل محمود ، القيم السلوكية ، مكتب التربية العربي لدول الخليج ، الرياض ، 2001.
- مالك بن نبي ، مشكلة الثقافة ، تر: عبد الصبور شاهين ، دار الفكر ، ط 4 ، دمشق ، 1984.
- ميشيل توماسيللو ، الثقافة والمعرفة البشرية. دراسة مقارنة بين أطفال البشر والرئيسات ، تر: شوقي جلال ، عالم المعرفة ، الكويت ، 2006.
- هادي نعمان الهيتي ، ثقافة الأطفال ، عالم المعرفة ، الكويت ، 1988.
- Anne Bourgeois, Jacques Légaré (2008), Valeurs familiales, histoire maritale et familiale, des grands-parents en France, Gérontologie et société, Paris, Éditions Fondation Nationale de Gérontologie, décembre, vol. 31, N° 127.
- Camille Lacoste-Dujardin (1985), Des mères contre les femmes: maternité et patriarcat au Maghreb, Éditions La Découverte, Paris .
- Ferroudja Ousmer (2021), Derrière les larmes de ma grand-mère, Koukou Éditions, Alger.
- Jean-Philippe Miraux (1996), L'autobiographie. Écriture de soi et sincérité, Éditions Nathan, Paris.
- La Patrie-news (2022), Ferroudja Ousmer, écrivaine à La Patrie news. «Pour une femme, écrire est une épreuve», <https://lapatrienews.dz/ferroudja-ousmer-ecrivaine-a-la-patrie-news-pour-une-femme-ecrire-est-une-epreuve/>, 18 novembre, (consulté le 03/11/2023).

- Marco Vannotti, Claire Morier-Genoud (2003), Violence domestique: une approche familiale et systémique, Médecine & Hygiène, Revue médicale suisse, Chêne-Bourg (Genève), Suisse, 5 novembre, N° 2457.
- Marie Lagrave (2009), Ré-enchanter la vieillesse, juillet-septembre, Mouvements, 59.
- Martine Boyer- Weinmann (2013), Vieillir, dit-elle. Une anthropologie littéraire de l'âge, Champ Vallon, Seyssel, France.
- Pierre Bourdieu (2010), Sociologie de l'Algérie, Édition Quadrige, Puf, Paris.
- Rabéa Hachemi (2018), Un jour ma mère reviendra, Dar Khettab, Boumerdès, Algérie .
- Rémi Lenoir (2003), Généalogie de la mémoire familiale, Éditions du Seuil, Paris.

6- الهوامش والإحالات:

- ¹ - Rose-Marie Lagrave, «Ré-enchanter la vieillesse», Mouvements, 59, juillet-septembre 2009, p. 116
- ² - Ferroudja Ousmer, Derrière les larmes de ma grand-mère, Koukou Éditions, Alger, 2021, p. 27
- ³ - Jean-Philippe Miraux, L'autobiographie. Écriture de soi et sincérité, Éditions Nathan, Paris, 1996, p. 78
- ⁴ - Rabéa Hachemi, Un jour ma mère reviendra, Dar Khettab, Boumerdès, Algérie, 2018, p. 28
- ⁵ - Pierre Bourdieu, Sociologie de l'Algérie, Édition Quadrige, Puf, Paris, 2010, p.98
- ⁶ - Ferroudja Ousmer, Derrière les larmes de ma grand-mère, op.cit., p. 27
- ⁷ - La Patrie-news, Ferroudja Ousmer, écrivaine à La Patrie news. «Pour une femme, écrire est une épreuve», <https://lapatrienews.dz/ferroudja-ousmer-ecrivaine-a-la-patrie-news-pour-une-femme-ecrire-est-une-epreuve/>, 18 novembre 2022, consulté le 03 novembre 2023.
- ⁸ - Rabéa Hachemi, Un jour ma mère reviendra, op.cit., p. 185
- ⁹ - عطا حسين عقل محمود ، القيم السلوكية ، مكتب التربية العربي لدول الخليج ، الرياض ، 2001 ، ص .
- ¹⁰ - Rabéa Hachemi, Un jour ma mère reviendra, op.cit., p. 181
- ¹¹ - Martine Boyer- Weinmann, Vieillir, dit-elle. Une anthropologie littéraire de l'âge, Champ Vallon, Seyssel, France, 2013, p.08
- ¹² - Ferroudja Ousmer, Derrière les larmes de ma grand-mère, op.cit., p. 79
- ¹³ - Rabéa Hachemi, Un jour ma mère reviendra, op.cit., pp. 20-21
- ¹⁴ - Ibidem, p. 20

¹⁵ - Ibid, p. 180

¹⁶ - Rabéa Hachemi, Un jour ma mère reviendra, op.cit., p. 22

¹⁷ - Anne Bourgeois, Jacques Légaré, Valeurs familiales, histoire maritale et familiale, des grands-parents en France, Dans Gérontologie et société, vol. 31, N° 127, Éditions Fondation Nationale de Gérontologie, Paris, décembre 2008, p. 177

¹⁸ - Rémi Lenoir, Généalogie de la mémoire familiale, Éditions du Seuil, Paris, 2003, p. 40.

¹⁹ - Rabéa Hachemi, Un jour ma mère reviendra, op.cit., p. 166

²⁰ - Ibid, pp. 188-189

²¹ - Marco Vannotti, Claire Morier-Genoud, Violence domestique: une approche familiale et systémique, In Médecine & Hygiène, Revue médicale suisse, N° 2457, Chêne-Bourg (Genève), Suisse, 5 novembre 2003, p. 2155

²² - Ferroudja Ousmer, Derrière les larmes de ma grand-mère, op.cit., p. 78

²³ - بيار بورديو، الهيمنة الذكورية، ترجمة: سليمان قعفراني، مراجعة: ماهر تريمش، ط 1، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2009، ص. 84

* - ضمنت فروجة أوسمير عملها ثلاث قصائد، ألفت اثنتين منها في 2007 والثالثة في 2009، وقد ورد في قصيدة "أنا" (Moi) (2007) ما يدل على النضال المسالم الذي لا تبتغي منه المرأة سوى استعادة حقها في الوجود. ومما يدل على ذلك الأبيات الآتية: تأكيد الذات دون صراع
دون صدم القبيلة
استعادة الأنا المسلوقة
للعيش أخيرا

(Voir: Ferroudja Ousmer, Derrière les larmes de ma grand-mère, op.cit., p.72)

²⁴ - بيار بورديو، الهيمنة الذكورية، المرجع السابق، ص. 56

²⁵ - Ferroudja Ousmer, Derrière les larmes de ma grand-mère, op.cit., p. 67

²⁶ - Ibid, p. 84

²⁷ - Ibid, p. 73

²⁸ - Camille Lacoste-Dujardin, Des mères contre les femmes: maternité et patriarcat au Maghreb, Éditions La Découverte, Paris, 1985, p.13

²⁹ - بيار بورديو، الهيمنة الذكورية، المرجع السابق، ص. 67

³⁰ - Ferroudja Ousmer, Derrière les larmes de ma grand-mère, op.cit., p. 68

** - ورد اسم الأب والأم والجد والجددة في رواية "يوما ما ستعود أُمي" بالقبائلية، فزيادة عن الاسمين المذكورين أعلاه قوبل الجد بكلمة جدّي (Jedy)، والجددة بكلمة ستيّ (Sety)، وكذلك قوبلت الجددة في رواية "وراء دموع جدتي" بالمتغير اللغوي القبائلي يايا (Yaya) المستعمل في منطقتي آث بني (مسقط رأس فروجة

أوسمير)، وواسيف، وغيرهما. ولعل إبقاء الكاتبتين على الأسماء الأصلية للأفراد الأساسيين من بين ما يؤسّر على حنينهما إلى العائلة القبائلية الجزائرية في أخص خصوصياتها، بعدما فقدت الأسماء حظوتها في أيامنا وأصبح الدخيل الأجنبي بديلاً لدى الأسر النووية.

³¹- Rabéa Hachemi, Un jour ma mère reviendra, op.cit., p. 13

³²- Ferroudja Ousmer, Derrière les larmes de ma grand-mère, op.cit., p. 77

³³- Ibid, p. 80

³⁴- مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ترجمة: عبد الصبور شاهين، ط4، دار الفكر، دمشق، 1984، ص. 112

³⁵- ميشيل توماسيللو، الثقافة والمعرفة البشرية. دراسة مقارنة بين أطفال البشر والرئيسات، ترجمة: شوقي

جلال، عالم المعرفة، الكويت، 2006، ص. 76

³⁶- Voir: Rabéa Hachemi, Un jour ma mère reviendra, op.cit., p. 158

³⁷- Ferroudja Ousmer, Derrière les larmes de ma grand-mère, op.cit., p. 24

³⁸- هادي نعمان الهيتي، ثقافة الأطفال، عالم المعرفة، الكويت، 1988، ص. 37

³⁹- Martine Boyer- Weinmann, Vieillir, dit-elle. Une anthropologie littéraire de l'âge, op.cit., p.12